لا شك ان كل ثورة هي عملية تمزق تنفصل فيها الخلايا الحية عن الميتة .. انفصالا صراعيا ناتجا عن عجز في القدرة على التفاعل والتطور تبديه الاجزاء المتخثرة عند اصطدامها بعنفوان الحياة والخلق ..

وهذا الاصطدام .. هذا الصراع الثوري الذي يحمل استمرار الحياة في اللحظات ليس الا ممارسة الوجود لامكاناته في الخلق ممارسة فعالة وخلاقة ..

فاذا توقف تيار اللحظات الخالقة هذه بسبب اضطراب اجتماعي .. كان لا بد من وجود مفازة .. هوة بين ما كان واستمراره اي ما يجب ان يكون .

وفي مثل هذه المفازة يعيش الذين لم تتحدد هويتهم عند ابتداء الصراع ..

وفي مثل هذه المفازة يعيش الذين لم يعوا حقيقة وجودهم .. ولم يعوا حقيقة علاقاتهم مع الآخرين .. هؤلاء الذين يحبون ولا يعرفون ما الحب .. ويكرهون .. ولا يعرفون ما الكراهية ..

هؤلاء الذين يعيشون مأساة الضياع .

✶

والضياع ظاهرة اجتماعية تعايش الثورة منذ ان تكون نقمة وانفعالا .. ظاهرة تستمد الثورة من حيرتها الصمود .. ومن انقباضها التفتح .. ولكنها نقيضها القتال .. اذ انها ليست الا فضحا للضياع ومقوماته وعناصره .. واثراء للحظات الحياة التي كانت بلا معنى ..

ومن هنا كان الفضح والاثراء عملية خلق اجتماعية .. تتطلب الايجابية كما تستلزم الوعي .

ومن هنا كان معنى ان نعيش لا بأن نقوقع اللحظات الحاضرة في حدود التخثر بل بأن نشحن اللحظة بطاقة انسانية مشعة ... حتى تكون لحظة تأجج بدل ان تكون لحظة نزع .

✶

وعلى هذا كان لا بد من اعادة النظر في معنى « الالتزام » ... الذي لا يعني بالنسبة للوجوديّ الا محاولة شحن اللحظة بالمأساة .. وكان لا بد ايضا من اعادة النظر « بالواقعية الماركسية » التي لا تعني الا محاولة وضع حدود تعسفية .. للحظة .. والتاريخ .

اقول كان لا بد من اعادة النظر لان هذه المقاييس الجاهزة اهزل من ان تتسع للحياة بعنفها وعنفوانها .. ولان هذه المقاييس مأساوية بنشأتها .. بتركيبها .. بغاياتها .. فهي لا يمكن ان تنتج الا المرض والتمزق غير المنتج .. انها مأساة الصراع بين الفرد والطريد .. والمجتمع الذي لا يبحث عنه متمثلة بالوجودي والماركسي .. هذا الذي يحاول ان يحيا في مفازة بلا حدود وذاك الذي يحاول ان يحدد المفازة بالرمال .

وعلى هذا فالالتزام بالنسبة لنا يعني محاولة معايشة تجربة الامة العربية في معركة الحرية والبقاء معايشة خلاقة ترفض الانفراط والتنافر كما انها ترفض ان تجعل الفرد سديما والمجتمع قطيعا ..

✶

أين نزار في « قصائده » من كل ذلك ..؟

وهل عايش التجربة ..؟

ثم هل هو ملتزم ..؟

منذ مدة وهذه التساؤلات مطروحة .. ولكني فيما قرأت لم اجد الجواب .. وذلك لان النقاد الذين درسوا هذه النقطة بالذات لم يخرجوا عن معنى الالتزام والواقعية المعهودين . فمنهم من عده ملتزما لانه يستطيع ان يشحن اللحظة بالمأساة ومنهم من رفضه لانه بعيد عن « قضايا الشعب » .. هذا من جهة .. اما من الجهة الثانية فان « النقاد » لم يدرسوا نزارا شاعرا .. انما علقوا على بعض قصائده مثل ( اوعية الصديد ) و ( بدراهمي ) و ( خبز وحشيش وقمر ) .. و ( راشيل شوارزنبرج ) .. ومن الطبيعي جدا ان يكون نزار الشاعر .. غير نزار القصيدتين .. وان تكون مقالاتهم مجرد انطباعات .

✶

ونزار .. ولا شك شاعر قمة .. ولكنه شاعر مأساة الضياع والتمزق والحيرة والنرجسية .. وبهذا فهو ليس ملتزما ولن يكون ما لم يعش الثورة .. ما لم يخرج من قوقعة المرض ..!

نزار .. هو الانسان العربي الضائع .. الانسان الذي لم تحدد فيه الواقع له هوية بعد .. انه انسان المفازة الذي يبحث عن الطريق فلا يهتدي فيصرخ بعد لأي :

اضعت تاريخي وانت مثلي  بغير تاريخ ولا مصير

وهكذا تتحدد علاقته بالاخرين من خلال الضياع ..

وهكذا يعرف نزار المرأة بلا تاريخ .. بلا مصير .. بلا هوية .. علاقته بها عابرة تنتهي كما يريد عندما يريد ..

انها « وجودية » في ( جانين ) (١٣٢) ـ تريد ان تمزق الحياة .. من حبها الحياة ـ اما في« طوق الياسمين » ( ١٢١ ) فانها انثى تبحث عن رجل .. وعن حانة .. وهي في « الى اجيرة » ( ١٥٨ ) دمية تشترى بالدراهم .. والطيب الفاغم .

انها دائما كذلك .. وهذا ما يريده نزار .. حتى انه عندما يلتقي صدفة بانسانة طيبة في « الى ساذجة » يصرخ مستهجنا :

لكنني ...
ابحث يا كبيرة العيون
ابحث يا فارغة العيون
عن الصلات المتعبة .. ( ص ٩٩ )

وفي سبيل هذه الصلات ينتقل نزار باحثا عن فرائسه .. ولكنه ما ان يجدها حتى يبرحها ( مع الجريدة ) (١٧)

وكثيرا ما يدعها نزار تتكلم ، تتحدث عن مأساتها ، مأساة هذا اللقاء

العابر الذي يحاول نزار ان يصوره دائما على انه تعلق من جهة واحدة ..
قال في ( مع الجريدة ) بلسان احدى فرائسه :

وبعـد لحظتين ...
ودون ان يـراني
ويعـرف الشـوق الذي اعتراني
تنـاول المعطف مـن امـامي
وغـاب فـي الزحـام
مخلفـا وراءه الجريـده
وحيدة مثلي انا .. وحيده .

اما في قصيدته ( لماذا ) ( ٢٩ ) فانها تتساءل بمرارة :

لمـاذا
منحت لقلبـي الهـواء ..؟
فلما اضاء
ذهبت بركب المسـاء ..
وخلفت هـذي الصديقـه
هنـا .. عنـد سـور الحديقه .
على مقعـد مـن بكـاء ..
لمـاذا ... ؟

غير ان نزار لعدم اقتناعه بشرعية هذه العلاقة .. يضع دائما نهايات درامائية مأساوية للقصة .. ( الى ميتة ) ( ١٠٣ )

انتهت قهوتنـا
وانتهت قصتنـا ..
وانتهى الحب الذي كنت اسميه عنيفا
عندمـا كنت سـخيفا ..
وضعيفـا ..

. . . . . .

انا ما عدت بتاريخك شيئا
انت ما عدت بتاريخي شيئا

. . . . . .

او في قصيدة « نفـاق » (١١٣)

كفـانا نفـاق
فما نفعـه كل هـذا العنـاق
ونحـن انتهينـا ..
وكل الحكايا التي قـد حكينـا ..
نفـاق ..
نفـاق ..

. . . . . .

او كما في « رسائل لم تكتب لهـا » (١١٧)

مزقيهـا
كتبي الفارغـة الجوفـاء .. ان تستلميها
والعنيـني
والعنيهـا ...
كاذبا كنت وحبي لك دعوى ادعيها ..

. . . . . .

ويشعر نزار انه لا يحصد الا الفراغ في تجواله فيحاول ان يبرر مسلكه امام نفسه بادعائه التغير والرزانة « عند واحدة » ( ١٤٢ )

قلنـا ونافقنـا ودخنـا  لم يجـدنا كل الذي قلنـا
حسناء ان شفاهنا حطب  فلنعـترف انا .. تغيرنـا

. . . . . .

أتلو رسائلنا فتضحكنـي  ابمثل هذا السـخف قد كنا

. . . . . .

من هذا نرى ان المرأة لا تكون بالنسبة لنزار الا لعبة والهية.. ولهذا فلقد كانت عندما تتحدث عن نفسها في قصائده تمثل الدور المصطنع الذي شاءه لها حين جردها من هويتها .. حين ادخلها المغازة .

المرأة هي التي تدعوه .. والمرأة هي التي تطيب له وتتحرق اليه . « عـودة ايـلول » ( ٣٢ ) ، « عيـد ميـلادها » ( ٥٠ ) ، « الى عينين شماليتين » ( ٦٩ ) ، « كريستيان ديور » ( ٢٦ ) ، ولكنه بعد ان يمتص رحيقها .. يستنفدها .. يمزقها .. يهب هاتفا ملء شدقيه :

ثرثرت جدا فاتركيني  شـيء يمزق لي جبيـني
مات الحنين اتسمعين  ومت انت مـع الحنـين
لا كنت شـيئا في حسـاب الذكريات .. ولـن تكوني

( قصيـدة : « لن تطفئي مجـدي » ) (١٢٥)

بعد هذا كله نستطيع ان نحدد ملامح نزار .. انه سفاح للجمـال .. ممزق للبراءة .. يعاني بعـد كل حادثة مرارة الاختبـار . ولكن نزار كالحدث الذي تضربه امه فيضحك .. انه يأبى الا ان يظهر بمظهـر المتبجح .. المستكبر .. والمستعد دائما للغزو .. للمغامرة .

« وهو كالمراهق يرى كل شيء جميلا بل مليئا بالعجب . والطـرقات كلها في نظرة مليئة بالاثارة وكل من فيها رمز « للحيوية » . والنسـاء كلهن فاتنات وهو بنشوة جديدة كلما رآهن يمشين امامه جيئة وذهابا ولا ريب انه يعشقهن جميعـا » (١)

ونزار لهذا كله سادي يحب ان يرى المرأة تتعذب .. وتتمزق .. كل نسائه مغدورات ولكن الازمة في « حبلى » ( ١٤٩ ) تصل الذروة ، عندما يقف نزار يشهد المأساة .. انه لا يقهقه لان روعة الغبطة اجبرته عـلى الصمت .

اما في « الى اجيرة » ( ١٥٨ ) فان نزارا يقهقه كالاله المغرور :

ردي فلسـت اطيق حسنـا لا يرد شـتائمي

او .. مسكينة لم يبق شيء منك منذ استعبدتك دراهمي ..!

فلا غرو اذن اذا اصر على ان يشهد المأساة بقلب لا يعرف معنى المأساة لانه لا يعرف معنى الاخر . ولذلك فان قصيدته « اوعية الصديد » (١٥٣) استلقى ( كقبو الجـليد ) بينما كانت فريسته تعاني مرارة اختبار عنيف وبؤس وتجربة مروعة ولكنه كما لم يأبه لها عندما مزق لها املها الوحيد لا يأبه لها بل ويستنكرها بعد انتهـاء العمليـة .

وهكذا تتخثر العلاقات بين اثنين بعد اتصال دموي .. ويقبـع هو « كقفص من اللحم القديد » بينما هي ترتعد امام قسوة التجربة ومن ثم وبعد ان تستعيد معنى العذاب الطويل الذي تعيشه كامرأة تتسـاءل بمرارة صارخـة :

« ماذا اريـد .. !؟
لا شـيء ...
يا قرصـان .. يا سفاح . يا قبو الجليد
فانا وعـاء للصديـد
يا ويـل أوعيـة الصديـد

١ ـ عرق ـ جبـرا ابراهيم جبـرا ـ ( ٩٠ )

هي ليس تملك ان تريد ولا تريد .. »

أليس هو نزار الذي حدد هذه النهاية !؟

ثم أليست هي المرأة النزارية .. انسانة الهوة ؟!

لقد كتب نزار على النساء ان لا يعرفهن الا مغدورات .. كتب عليهن حمل الصخرة والصعود الى القمة .. وكتب عليهن سقوط الصخرة كلما وصلت القمة .. اراد لهن كل هذا العذاب .

ولكن المرأة في قصائد نزار تتغير ولا نريد ان نقول تتطور .. انها في قصائده ( مع الجريدة ، ونفاق ، وعند واحدة ، والى اجيرة ) شاءت ان تظل صامتة اما في « اوعية الصديد » و ( رسالة من سيدة حاقدة ) فقد احتجت وكان احتجاجها على موقفها .. على مأساتها . ولمعرفتها الاكيدة بنزار لم تشأ ان تحتج عليه ايجابيا بل اكتفت بفيض من الشتائم والنعوت المقذعة .

وهي بينما تظل تتمرغ في اوحال مأساتها الفردية في اكثر القصائد تدخل في قصيدتين المجتمع .. فتزول الحواجز بينها وبين الاخرين على الرغم من انها انسانة المفازة .. صنيعة نزار ( مريضة الافكار ) ... ( طائشة الجورب ) .. ( مذعورة السالف ) الدمية التي تشترى وتباع .. و .. و ..

وعلى الرغم من انها كانت احدى عناصر قصيدة ( راشيل شورزنبرج ) .. كانت شهيدة .. الا انها كانت ضائعة .. لم تساهم في المعركة فماتت ضائعة

« جيل فدائي من الصغار »
يعرف عن نوار
وقبرها الضائع في القفار ..
اكثر مما يعرف الكبار » .

✶

ان انسان المفازة ... انسان الهوة ، الضائع المزق يتمثل اكثر ما يتمثل في المرأة ولذلكفقد كانت المرأة كل شعر نزار الذي انفتح عليها انفتاحا مأساويا جعله دائما معها في البيت والشارع والمخدع والقصيده .

ومن هنا كان اندماج نزار بالمرأة كمرأة .. مجرد انفعال عابر لا يملأ غير لحظة ميتة وسخيفة .. انها لحظة الجريمة والمعصية التي تدفعنا اليها غريزة الكبريت تلك التي لا تعني الا الموت .. موت اللحظة .. وموت الوفاء وموت انسان الهوة ..

الفلقة العليا دعاء سافر والدفء في السفلى فأين اموت ؟ (٩٨)

. . . . . .

عزائي ان لم اعد ان يقال انتهى في عيون ( ٨١)

. . . . . .

« ونحن بكلتا يدينا
دفنا الوفاء
وبعنا ضمائرنا للشتاء » ( ١١٤ )
كم مرة افنيتها وفنيت . . ( ٨١ )

شفتان مقبرتان شقهما الهوى في كل شق احمر تابوت (٨١)

وهكذا كان الحب موتا .. نهاية قاتمة لا لشيء الا لانه حب الدمية غير الخلاق .. وغير المنتج ..

✶

مما سبق كله نستطيع ان نفهم معنى لفظة حبيبتي عندما يقولها نزار .. ونستطيع ان ندرك معنى قوله :

دعي حكايا الناس لن تصبحي كبيرة الا بحبي الكبير

أو ..

ولتثقي مهما يكن بحبي فانه اكبر من كبير

فهو يريد منها ان تثق بحبه مهما يكن .. اي مهما يكن مشبوها ...

انني اعبد عينيك فلا تخبري الليل بهذا الخبر ..

. . . . . .

واتركيها واتركيني خبرا لم يجل بعد بفكر المضمر ..

لا غرو اذن اذا رأينا المرأة غريبة دائما .. مضطهدة دائما تبحث عن نزار تقضي معه لحظة عابرة هربا من الضيق القتال ..

✶

لغيري ان يرد كل هذه الامور الى اسبابها وان يتوفر على درس دلالاتها ...

ولغيري ان يتحدث عن شخصية نزار وتطورها .. وعن مادة نزار الفنية وصوره والفاظه ونواحي الغموض والاشراق عنده ..

ولغيري ايضا ان يتحدث عن علاقة هذا النوع من الفن بالجمهور .. وبالشعر العربي .. بكل هذه الاشياء ..

اما انا فاكتفي الان بالقول :

ان نزار شاعر لحظة ..
ان نزار شاعر لفظة ..
شاعر مأساه ..

كويت **ناجي علوش**


ظهر حديثا :

# المدخل الى التربية التجريبية

للدكتور عبد الله عبد الدائم

في طبعة ثانية مزيدة ومنقحة

يطلب من دار العلم للملايين وسائر المكتبات الكبرى